SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.20 NO. 3 2021
DOI: 10.51984/JOHS.V20I3.1540

جامعة سبها للعلوم الإنسانية مجلة
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: https://sebhau.edu.ly/journal/index.php/johs

فزان حلقة وصل في طرق الحج المغربي بين رحلتي ابن مليح والبرتلي

ربيعة أحمد المدَّاح

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طرابلس، ليبيا

الملخص

يتناول هذا العمل دور فزان في خدمة ركب الحج المغربي، وتتبع هذا الدور في فترة زمنية تزيد عن مئة وخمسين عاماً من خلال رحلتين حجيتين عبرتا المجال الجغرافي لبلاد فزان زودتنا كل منهما بتفاصيل عن المناطق المزارة والظروف المحيطة بقوافل الحجاج أثناء تنقلها بين محطات بلاد فزان. كما مدتنا بمعلومات مهمة عن جغرافية تضاريس الطرق ومراكزها العمرانية، وقدمت لنا صوراً من مظاهر ترحيب الأهالي القاطنين حول الطرق بحجاج بيت الله الحرام، فجاءت هذه التسجيلات شهادة حية عن مدى المحبة والاحترام بين الوافد والمقيم. الرحلة الأولى لابن مليح القيسي خرج فيها للحج من مدينة مراكش سنة 1040هـ/ 1630م ودوّن رحلته تحت اسم أنس الساري والسارب، وبعد ما يزيد عن القرن والنصف دونت رحلة الحاج البشير البرتلي الذي خرج من مدينه ولاته عام 1204هـ/1789م، وهي الرحلة التي كشف عنها البحاث في العقد الماضي لتعطينا مجالا رحب لدراسة بلاد فزان ودورها في رحلات الحجاج المغاربة.

الكلمات المفتاحية:

طرق الحج
الركب المغربي
الرحلة
فزان
ابن مليح
البرتلي

Fazan is a link on Moroccan pilgrimages routes Between Abn Melih and Albertli's journeys

Rabea Ahmed Elmedah

History Department, Faculty of Arts, University of Tripoli, Libya

A B S T R A C T

This work deals with the role of Fazan in the service of the Moroccan Hajj, and follows this role over a period of more than 150 years through two Journeies that have covered the geographical area of Fazan, each providing us with details about the visited areas and the conditions surrounding the pilgrims' convoys as they move between the stations of Fazan countries. It Besides, provided us with important information about the geography and physical centers of the roads and provided us with images of the welcome of the residents around the roads to the pilgrims of Mecca, which gave us a living testimony of love and respect between the newcomers and the resident. The first journey of Aben Malih al- Qaisi who went out of the city of Marrakesh in 1040-1042 H/ 1630-1633M, and without his trip under the name Anas al-Sari and al-Sareb, and after than century and a half the Journey of Hajj al-Bashir al-Narthli, who left his city in 1204-1205 H/ 1789-1790M, this trip was revealed by researchers in the past decade to give us welcome opportunity to study Fazan countries and their role in the Moroccan pilgrim's trips.

Keywords:

Pilgrimage routes
Moroccan knees
the journey
Fezzan
Abn Melih
Albertli

المقدمة

تعد هذه الدراسة محاولة لبحث دور فزان في طرق الحج المغربي بين رحلتين حجيتين مغربيتين عبرتا المجال الجغرافي للمنطقة بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الهجري /السابع عشر والثامن عشر الميلادي، رصدت كل رحلة منهما المعالم الجغرافية للمنطقة، ومظاهر احتفاء الأهالي بقدوم ركاب الحج، وانطباع الحجاج المغاربة عن مشاهدتهم للبلاد والسكان، وللوصول إلى ذلك سوف نعتمد على منهج الوصف التاريخي في تتبع مسار الرحلتين، كما تنتهج الدراسة التحليل المقارن لتقصي ملامح التغيير في الطرق، والدور الذي أدته كل محطة. وربط ذلك بالحالة السياسية السائدة في المنطقة .

رحلة ابن مليح:

تعد رحلة ابن مليح إلى الحج عبر الطريق الصحراوي هي الرحلة الوحيدة التي

*Corresponding author:
E-mail addresses: Rabea_elmedah@yahoo.com

Article History : Received 16 August 2020 - Received in revised form 17November 2020 - Accepted 20 December 2020

وصلتنا كاملة خلال هذه الفترة، وقد قام الأستاذ محمد الفاسي بتقديم دراسة للرحلة سنة 1389هـ/ 1969م، وهي المحاولة الوحيدة لتحقيق الرحلة مع ما يعتريها من نقص في التعريف بالأماكن، وتراجم الأعلام وقد نشرت الرحلة تحت إشراف وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي التي كانت تحت رئاسة الأستاذ محمد الفاسي آنذاك ، ضمن مجموعة سلسلة الرحلات رقم (5) حجازية رقم (2)، وقد ذكر المحقق أن النسخة الخطية وصلت إليه في حالة جيدة، وهي مذهبة وتحوي عناوين فرعية، وتكثر في حواشيها التعليقات وعليها قيد تملك يعود لشخص يدعى محمد مع ذكر لشخص أخر يدعى بشر، وهي موجودة في الخزانة العامة تحت رقم (ك 2341).

نسبت الرحلة حسبما جاء في مقدمة المؤلف لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، وهو من مدينة مراكش ولم يقدم المؤرخون لكاتبها ترجمة وافية ورجح الأستاذ محمد الفاسي أن يكون أصل ابن مليح عربي من قيس، واستدل على ذلك من أسلوب الكاتب المنمق في الكتابة، والمعرفة الواسعة بالأعلام، وإحاطته بقدر من الثقافة الدينية والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، ومما يلاحظ كذلك من خلال رحلته نزعته الصوفية، وحرصه على زيارة قبور الأولياء والصالحين.

وكل ما ورد من معلومات عن المؤلف هو ذكر اسمه وملخص لرحلته جاء في كتاب(الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام) للعباس بن إبراهيم( )، وترجم أيضا ابن الزيات التادلي في كتابه

)التشوف إلى رجال التصوف) لرجال من بني قيس استوطنوا مراكش في فترات مبكرة تعود إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.( )

ركب ابن مليح:

خرج ركب ابن مليح في أيام حكم السلطان السعدي الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور الذهب( )، بإمرة أحد مشائخ الصوفية وهو سيدي محمد بن الوالي الأكبر، ويصحبه سيدي عبدالعزيز بن سيدي محمد بن سيدي عمرو، وطوال الرحلة كان الركب يتوقف في نقاط ليلتحق به باقي الحجاج؛ فبعد خروجه من بلاد درعة ينحرف عن الطريق ويتجه جنوبا إلى تابلبالت؛ حيث التقى بالقائد جوهر المكلف من قبل السلطان السعدي لحمل هدية إلى المسجد النبوي( )، وفي بلاد توات توقف الركب في قرى بني أركان ليلتقي عامل السودان الباشا على بن عبد القادر الشرقي، صحبة ابن العلامة أحمد بابا التنبكتي، وسيدي أحمد بن محمد السوداني، وسيدي محمد بن عبد العزيز الدرعي، وهو من تلامذة الشيخ أحمد بابا التنبكتي، وعند وصول القافلة إلى آخر قرى بلاد توات في طريقهم إلى فزان توقف الركب عند قرية كشطن ليتلحق بهم جماعة من أهل البلد، وهذا ما حدث أيضا عند مرورهم ببلاد فزان، وذكر كذلك التقاءهم بركب الحج الفاسي على مشارف بلاد فزان كان متجها للحج.

ويدل تنظيم الركب على هذا المستوى العالي، وضمه لشخصيات مهمة في الدول الإسلامية على ازدهار حركة التنقل عبر الطريق الصحراوي في منتصف القرن الحادي عشر الهجري في ذات الوقت الذي كانت القوافل الحجاج المغاربة تتقاطر فيه على الطريق الساحلي في الشمال.

رحلة البرتلي :

كشف عن هذه الرحلة الدكتور محمد الأمين الحمادي في تحقيقه لكتاب (منح الرب الغفور) في ص 30 الذي نشر سنة 1993م، وأشار إلى النسخة المخطوطة في مكتبة ولاته( )، وفي سنة 2016 م نشر الكاتب الموسوعي أحمد محمد محمود أمغر نص للرحلة في موسوعة جمهرة الرحلات (17) في الجزء العاشر الخاصة برحلات الحج (ص 165-198) عن النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 1052 جغرافيا، وقد قام مؤخراً الدكتور عمرو عبد العزيز منير من جامعة أم القرى بالمملكة السعودية، والدكتور عبد الرحمن بن محمد بن عثمان من جامعة بشار بالجزائر، بدراسة الرحلة وهي حاليا تحت الطبع بمطبعة بريل في هولندا حسبما أخبرنا صاحب الدراسة.( ) والنسخة الخطية التي اعتمد عليها في هذه الدراسة وصلتنا من مؤلف جمهرة الرحلات للدكتور أحمد محمد محمود أمغر، وهي نسخة ثالثة عن النسخة الخطية الأصلية التي كتبت بخط مغربي، دونت هذه النسخة عام 1336هـ، برسم المكتبة الزكية بمصر المحروسة بيد الناسخ رضوان بن محمد يسين ابن رضوان البراوي، وهي منقولة عن نسخة مقابلة ومصححة على النسخة المغربية كتبها عمر بن سيدي محمد بن سيدي أحمد بن الحسين، وحرر قيد الختام بعد يوم الخميس لثمانية عشرة خلت من ربيع الثاني عام تسعة عشر ومائتين وألف ( ).

منهجية كتابة الرحلتين:

يرجح أن الكاتب دون ملاحظاته في كتيب خاص أثناء الرحلة، تم أعاد صياغتها بعد عودته؛ إذ يذكر في أخر النسخة المخطوطة في 14/ رمضان/ 1045هـ الموافق 21/ فبراير/ 1636م. وهو ما يرجح لدينا احتمال أن النسخة المخطوطة قد نالت حظاً وافراً من التعديل والتنقيح بعد عودته إلى مراكش من الحج، وهو ما يبدو واضحاً من خلال كثرة التعليقات على حواشي المخطوطة كما أخبرنا المحقق.

وفي رحلة البرتلي يبدو أنه قد اتبع طريق تدوين الملاحظات خلال الرحلة في مسودة، وبعد عودته بيض مسودته فجاءت غنية بالمعلومات، ضبطت أسماء المواضع بدقة الأمر الذي يدل على سعيه لتدوين الاسم الصحيح للأماكن كما يلفظه أهل البلاد.

دوّن البرتلي كل مرحلة من خروجه من ولاته حتى عودته إليها كما حدد مسارها منذ خروجه من ولاته ( ) حتى وصوله إلى الحرمين الشريفين( ). وقد حظيت بلاد فزان في رحلة البرتلي بقدرٍ كبيرٍ من المعلومات إذ شغل الحديث عن بلاد فزان منذ خروجه من عين صالح حتى وصوله إلى سيوة ثماني عشرة صفحة وفي طريق العودة صفحتين من مجموع ست وستين صفحة .

خط سير الرحلتين:

خرج ابن مليح للحج في ركب الحج المراكشي يتتبع طريق الواحات من بلاد توات في الغرب حتى يصل إلى بلاد فزان شرقا، ومنها يتجه نحو واحات سيوة بالبلاد المصرية.

وقد وصف بأنه طريقٌ صعب؛ لأنه يقطع آراضي صحراوية؛ حيث تنتشر على طول المساحة من غربي سجلماسة إلى أعلى أرض الواحات الكثبان الرملية المتحركة، ( )، وربما يكون هذا هو السبب من وراء قلة وجود الرحلات المدونة عن هذا الطريق، غير أن إشارة المصادر الجغرافية إلى طريق مصر – مالي المار بالواحات ( )، يبدو أنه كان مرتاداً في فترات متقدمة من الوجود الإسلامي في المنطقة، وقد أشار ابن حوقل في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلى هجر الطريق بسبب العواصف الرملية.( )

وبافتراض أن هذا العائق غير ثابت تمشياً مع التغير الدائم في الأحوال المناخية بالمنطقة فإن إعادة إحياء هذا الطريق أمر غير مستبعد، خاصة وإن رحلة

سلطان مالي منسى موسى المعروفة إلى الحج في القرن السابع الهجري قد عبر فيها الطريق المار ببلاد فزان، وأرض الواحات وصولاً إلى مصر ( )، وذكر كذلك ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان عندما عبر المنطقة إلى وجود تجارة رائجة بين الواحات الصحراوية مثل: غدامس، وسجلماسة، وقرى وادي درعة، قرى توات، وملحات تغازي.( )

كما أشار إلى خفارته من قبل جنود مسوفة كما كانت حركة تنقل القوافل مستمرة؛ فقد خرج في طريق العودة صحبة قافلة كبيرة، كان عدد الخدم فيها يقارب الستمائة، وبعد وصوله إلى بُودا كبرى قرى توات انتظر إعداد قافلة ليخرج صحبتها إلى سجلماسة وكانت طريقه بعد غات تمر على توات، ومنها إلى سجلماسة ( )، وهي الطريق التي عبرها ابن مليح في رحلته، وهي طريق حجاج بلاد السودان في تلك الفترة؛ إذ أشار إلى ملاقاته لسلطان بلاد السودان، وخروجه صحبة ركب الحج المراكشي.( )

وحسب ما جاء في رحلة ابن مليح فإن مجموع مراحل الطريق يصل إلى مائتين مرحلة ابتداء من مدينة مراكش ووصولا إلى المدينة المنورة، وتكون مجموع المسافة بتقدير ثلاثين كلم للمرحلة تقريباً ستة آلاف كلم، وقد قطعها ابن مليح في رحلته ذهاباً وعودة في ستة أشهر ونصف؛ أي فيما يقرب من مائة وثمان وتسعين يوماً، وكانت القوافل خلال تنقلها عبر طريق الحج الصحراوي تقطع مسافة سبعة أيام في أراضي رملية تفتقد لمصادر المياه حتى تصل إلى المحطة التالية ( ). يخرج

هذا الطريق من مركز تجمع الحجاج في مدينة مراكش، الواقعة جنوب جبل درن بمسافة عشرين ميلاً، وعلى بعد أثني عشر ميلا من وادي تانسيفت، وهي من كبرى مدن المغرب الأقصى وإحدى المراكز التجارية الهامة بجنوب بلاد المغرب، تخرج الطريق من مدينة سجلماسة باتجاه الجنوب الشرقي مخترقة نواحي بلاد وادي درعة ( )، مارة على عدد من الزوايا والقصور أكبرها قصر وارزازات الذي يبعد عن بلاد وادي درعة بنحو إحدى عشرة مرحلة ( )، ثم يتبع الطريق الزوايا المقامة على جانبي الوادي منها: تابرنوست، زاوية سيدى موسى، زاوية ولاتن أردن، باستور، تحمدرات، زاوية المرابطين الأنجاد، ثم لكتاوة، وهي آخر محطة على وادي درعة ( )؛ حيث كانت قوافل الحجاج عادة ما تستريح بهذه المحطة لتتأهب الدخول إلى الصحراء.

يمر الطريق عبر المناطق الصحراوية على مواضع للآبار ( )، وغالباً ما يبعد كل مورد عن الآخر بمرحلة أو بمرحلتين حتى تصل الطريق إلى بلاد توات ( )، وهنا يتقاطع مع الطريق المتجه من بلاد توات نحو الشمال ( )، وكانت أحد محاور التبادل التجاري بفضل موقعها المتوسط ما بين المراكز التجارية؛ حيث تبعد عن مدينة سجلماسة بمسافة ثلاثة عشر يوماً، وعن مدينة غدامس بحوالي عشرين يوماً، كما تفصلها مسيرة عشرين يوماً عن مشارف بلاد السودان ( )، وتحوي توات كثيراً من الواحات وقد ذكر ابن خلدون إلى أن عدد القصور بها يتجاوز مئتي قصر منتشرة من الغرب إلى الشرق ( ) كانت توات محطة رئيسة في طريق الحج الصحراوية، فقد قصدها حجاج بلاد السودان ليخرجوا مع قوافل الحجاج من أهل المغرب، كما أنها من الأسواق الكبرى بالطريق؛ حيث ذكر ابن مليح إلى أنهم قد أقاموا بها لمدة سبعة عشر يوماً في بيع وشراء.( )

بعد أن يخرج الطريق من بلاد توات تدخل في صحراء آزكر الفاصلة ما بينها وبين بلاد فزان، وهي تمتد لمسافة خمسين يوماً تقل فيها مصادر المياه، فحسب ما جاء في رحلة ابن مليح كانت المسافة التي تفصل المورد عما يليه من يومين إلى سبعة أيام، وقطعت قافلته مسافة أربعة وأربعين يوماً في أراضي صحراوية لا يتجاوز عدد موارد المياه فيها أحد عشر منهلا، وهي عبارة عن مواضع للأحسية تتواجد بباطن الأودية أو آبار كان بعضها مطموراً بسبب العواصف الرملية.

وبعد أن يتجاوز الطريق صحراء أزكر يأخذ اتجاه الشمال الشرقي إلى بلاد فزان، وهي بلاد كبيرة تضم مجموعة من القصور، ووصفها الوزان بقوله: إنها" منطقة كبيرة جدا مسكونة، فيها قصور عظيمة، وقرى كبيرة، كلها عامرة بناس أغنياء يملكون النخيل والأموال، ويجاورون كلاً من أكدز، وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر على قرابة ستين يوما من القاهرة ( ) ."

وكانت طريق الحج تمر على عدد من المحطات أولها قصر آبار ( )، وهنا ذكر صاحب الرحلة أن سلطان فزان لما سمع بقدوم أمير قرشي، وآخر زنجي أرسل اثني عشر فارساً لتقصي أخبار الوافدين على مملكته، وبعد معرفتهم بوصول ركب الحج المغربي رحبوا به( ) .

ثم مر الركب على قصر جرمة وصف في رحلة ابن مليح بأنه قصر حسن، وأشاد بكرم ساكنيه؛ فهو كما ذكر " ياله من قصر ما أحسنه، أهله أجياد، وأيامه أعياد أكثر لحومه الدجاج تتلاطم به الأمواج"( ) ، ومنها إلى بريك.( )

ثم بعد مرحلة يصل الطريق إلى عاصمة الإقليم مدينة مرزق وهي من المحطات الرئيسة بالطريق، وقد تمتد فترة إقامة قوافل الحجاج المغاربة بها إلى ما يزيد عن الأسبوعين لغرض الاستراحة والتسوق؛ إذ تتمتع المدينة بحركة تجارية نشطة طوال العام بفضل توافد القوافل التجارية عليها من المدن الساحلية في الشمال، ومن بلاد السودان جنوباً.

وقد صف لنا ابن مليح حفاوة سلطانها، وتواضعه مع حجاج بيت الله الحرام، وأفادنا بأن السلطان خرج من قصره وترجل لاستقبال الركب، وأبدى بهجته وسروره بقدوم الوافدين، واستضاف الركب ثلاثة أيام بلياليها، كما أمر " بمناد ينادي ألا من ضيع لمغربي خروبة قطعت يده، ومن ضيع له مثقالاً قطع رأسه ... وأن الأسعار كذا وكذا، ومن زاد، أو استزاد فلا يلومن إلا نفسه". ( ) وقد أقام ركب ابن مليح بالمدينة خمسة عشر يوماً في " عيش رغد، وبيع وشراء، وأخذ وعطاء" وكانوا ينتظرون وصول قافلة من مدينة طرابلس لشراء الرواحل ( )، وهكذا نرى مدى حرص ولاة البلد على توفير كل ما تحتاجه ركاب الحجاج، ومراقبتهم المباشرة لحركة الأسواق أثناء مرور الركب بهم.

تم يأخذ الطريق باتجاه الشمال الشرقي متتبعاً محطات: قصر تراغن ( )، وهو من المحطات الكبرى في الطريق وصفه ابن مليح بأنه قصر قديم عظيم، وخيره جسيم، وفضله عميم، وتحدث ابن مليح عن سيد القصر الشيخ عمر بن تامر التراغني الذي بالغ في كرمه مع الحجاج ووصف مظاهر الفرح بقدوم الركب بقوله:" لما تنسم نسيم الركب الحجازي، وتعطرت أرجاء تلك الماكن بنشره تأهب حفظه الله للقاء، وقام بعياله وحشمه شوقاً، فلقى الركب في نحو ميل في كبكبة من أبل وخيول، فترجل عن جواده، ومعه أبناؤه وأحفاده، وأظهر من الفرح والسرور مالا يحصيه منظوم ولا منتور .( ) "...

وقد وصف ابن مليح زاوية حميدة بقوله:" فيها رجال صلحاء وسادات نصحاء" ( )، وقد أقام الركب فيها ليلة وخرجوا صباحاً صحبة قوم من القرية، ومنها إلى مدينة زويلة، وأشار في حديثه عن المدينة إلى تاريخها ومكانتها السابقة في عهد بني الخطاب، ويبدو من خلال ما شاهده من آثار ومزارات عن عظمتها في السابق حتى أن دفتي باب المدينة نقل للقاهرة وهو المعروف بباب زويلة.( )

والطريق بعد زويلة تقطع مرحلة كاملة في أرض صحراوية، ومنها تتجه الطريق

نحو مورد أبي اللفاع ووصف بأنه غابة شجر فيه آبار قريبة الماء ( )، وقد وصف كذلك قصر تمسة بأنه أعلى قصور بلاد فزان تتوفر فيه المياه من الآبار غير أن بعضها غير عذب ( )، وبعد أن تسير القافلة لمسافة ثلاث مراحل في أرض صحراوية تصل إلى بلدة الفقهاء التي ووصفت بأنها بلدة منقطعة في صحراء بين جبلين تتوفر فيها المياه من الآبار، وتكثر فيها أشجار النخيل .( )

ومنها بعد سير ثلاثة أيام في الصحراء يصل الركب إلى زلة وهي مدشر صغير بني على ربوة مرتفعة وقال ابن مليح أن سكانها من قبيلة عكارة " لا معاش عندهم، ولا قوت إلا ماء يسمونه أكب يستخرجونه من النخيل أبيض حلو، ثم يطبخونه، ويستخرجون منه شيء يشبه الرب( ) "

ثم يتجه شمالاً يقطع فيها الركب مرحلتين في أرض صحراوية خالية، ويمر على بئر مياهه مالحة كبريتية، ثم يسير مرحلتين في الصحراء حتى يصل إلى مورد يسمى جبة ( )، وبعده يسير مرحلتين حتى يصل إلى أوجلة وهي إحدى الواحات الواقعة جنوب بلاد برقة، وهي من المحطات التجارية بالمنطقة، وكذلك من المحطات الرئيسة في طريق الحج الصحراوية؛ إذ كانت قوافل الحجاج تقيم بها لمدة أسبوع أو أكثر ( )، ووصف ابن مليح بساتين النخيل فيها وسواقي مزارع الحبوب، وأشار كذلك إلى السلع التجارية الرائجة في المدينة فمن ورادات المدينة التي تجلب من الجبل الأخضر: المنتوجات الحيوانية كاللحوم، والسمن، والشحوم ( )، ووصف ابن مليح كذلك معمار المدينة وقال:" بنيانها يشبه بناء المغرب في الشكل، ولها بابان أحدهما لناحية المشرق، والآخر لناحية المغرب .( ) "

ولم يشر ابن مليح إلى مراسم استقبال الركب لأن أمير المدينة وقت وصول الركب كان خارج المدينة في نواحي برقة، وبعد التزود بما يحتاج إليه من زاد خرجت القافلة نحو واحات سيوة، الطريق من أوجلة إلى سيوة خالية من السكان، تمر فيه القوافل على آبار جراجر، ثم إلى منهل قطمير، ثم تقطع قوافل الحجاج صحراء الغرود التي تمتد لمسافة خمس مراحل واجهوا فيها خطر الكثبان الرملية المتحركة والعواصف الرملية .( )

ثم تصل الطريق إلى بئر الطرفاوي، ثم إلى آبار جلادة ، ثم لمورد الحريدة، ومنه تمر القوافل على مورد الكيكب، وهي آبار قلية المياه، ثم على مياه شباطة قبل دخول واحات سيوة.( )

وتعد سيوة من أكبر نواحي بلاد الواحات تكثر بها العيون، وتعرف بإنتاج أنواع جيدة من التمور كانت تمتار منها قوافل حجاج المغاربة المتجهة إلى الحرمين؛ حيث كان تجار سيوه يقصدون الطريق المار جنوبي مدينة درنة لبيع التمور ( ).

وكانت قوافل الحجاج تتوقف عند سيوة لفترة تصل إلى ما يزيد على ثلاثة أيام، ليتبع الطريق بعد الخروج منها لمسافة ستة عشر يوما حتى تصل إلى القرى المنتشرة في المناطق المتصلة بنهر النيل ومن بين القرى التي تنتشر على هذه الطريق: المزرك، أم الصغير، آبار الشكة، أبو الغرانق ( )، الحفرة( )، وبعد وصول قوافل الحجاج إلى مدينة القاهرة كانت تأخذ طريق الحج المصري المار عبر سيناء، ثم تلتقي بطريق الحج الشامي لتخرج قوافل حجاج المغرب، ومصر، والشام عبر طريق الحجاز.

وفي رحلة العودة خرج ركب ابن مليح من القاهرة عبر طريق وادي الرهبان، ثم سيوة، ثم وجلة، وفي وجلة يشير ابن مليح إلى ضيافة أميرها (عمر) للركب وإقامتهم فيها سبعة أيام، وهنا لم يسلك الركب طريق الذهاب المار بمحطتي زلة وبلدة الفقهاء، بل اختاروا طريق جبال الهروج السود والبيض؛ لأنه أقصر من طريق زلة، وعلل ذلك بقوله: " وانحرفنا لطريق الهروج؛ لأنها أقرب من الأولى، وهي طريق الفقهاء وزلة إلا إنها لا يسلكها الركب إلا إذا امطرت لكونها ليس بها آبار إلا ماء تجمع في البطون من ماء المطر"( ). وبعد اختراق الممرات عبر الهروج السود ثم البيض، وصلوا عاصمة بلاد فزان، واستقبلهم سلطان مرزق محمد بن جميل " فتلقانا على عادته وأفاض علينا من كرمه ونعمه فأقمنا للاستراحة عنده سبعة عشر يوما فأتحف الركب بمقدوره، واتحف الشيخ كذلك، فانصرفنا من بلده راضيين، ولفعله الجميل شاكرين.( )"

ثم عبر الركب الطريق نحو بلدة أوباري، ومنها تجهزوا بالزاد لقطع الصحراء الفاصلة بين بلاد فزان وتوات .

رحلة البرتلي :

صاحب الرحلة يدعى البشير بن الحاج بن أبي بكر بن الطالب محمد البرتلي، ترجم له صاحب كتاب ومن أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق، أبو علي بحيدَّ بن الشيخ يربانَّ القلقمي الإدريسي

(،وذكر أنه من منشدي المدائح النبوية، وكان يطرب بها حتى لقب بالمدّاح، تتلمذ البرتلي على يد عدد من العلماء في بلاد المغرب والمشرق؛ فقد أخذ إجازة كتاب الشفاء للقاضي عياض عن الفقيه محمد الأمين بن الطالب سيدي أحمد السوقي، وأخذ كتاب السير عن الفقيه عمر بن مود حمد نمع الفلاني، وحصل على إجازة الشيخ مرتضى الزبيدي صاحب المعجم اللغوي المعروف العروس في جواهر القاموس عند حضوره لدروس رواية البخاري، وأجيز كذلك كتاب الشفاء عند إقامته بالقاهرة في حجته سنة 1204هـ، توفي البرتلي يوم 11/ رمضان / 1214هـ الموافق 6/فبراير/ 1800م .( )

وموطن البرتلي مدينة ولاته، وهي مدينة تقع في الحوض الشرقي لموريتانيا أنشئت في القرن الأول الهجري، وكانت تسمى بيرو أسستها المجموعات الزنجية المعروفة في غرب إفريقيا تسمى سرغلات وقد شهدت المدينة نشاطاً تجارياً كبير بفضل موقعها الجغرافي المتوسط للطرق التجارية التي تربط بلاد المغرب الأقصى جنوبا مع بلاد مالي، وفي ربيع سنة 753هـ/1352م، زارها ابن بطوطة وسماها إولاتن وتحدث عن رخائها الاقتصادي ومكانتها التجارية وجاء في رحلته " يجلب إليها تمر درعة وسجلماسة وتأتيهم القوافل من بلاد السودان فيحملون الملح ويباع الحمل منه بثمانية مثاقيل إلى عشرة، ويباع في مدينة مالي بعشرين مثقالا، وربما يصل إلى أربعين مثقالا وبالملح يتصارفون كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعونه .( ) "

كان خروجه من ولاته بتاريخ 25/ صفر/ 1204هـ، الموافق 14/ نوفمبر/ 1789م، فقد جاء في تاريخ ولاته في حوادث سنة 1204هـ/ 1789م." حج الشريف مولاي عبد الله شيخ العافية بن سيدي محمد بن مولاي صالح، والحاج الطالب صالح البرتلي وغيرهم خرجوا في صفر الخير، ودخلوا المدينة المشرفة في المحرم رأس العام الخامس والمائتين والألف" ( )، وحسب ما جاء في كتاب حوادث السنين فقد كان الركب يضم مشائخ، وأعيان ولاته من بينهم: مولاي عبد الله بن سيدي محمد بن مولاي صالح بن مولاي الشريف بن سيدي حمو العلوي، والحاج الطالب صالح بن عبد الله بن الطالب أبي بكر افيدلي الزحافي، ويبدو أن الركب الشنقيطي في هذه الفترة التاريخية كان منظم إلى ركب بلاد السودان، ومن تاريخ الخروج للرحلة والتي تستمر لما يزيد عن عشرة أشهر يرجح هذا الاحتمال؛ لأنه من العادة خروج الركب المغربي في شهر شعبان، ويصل إلى مدينة طرابلس في شهر رمضان.

وعند تتبع خط سير الرحلة نجده لم يتجه شرقا نحو بلاد توات بل سلكوا

جنوباً نحو بلاد أزواد الواقعة شمال مالي الحالية في رحلة استغرقت أربع عشرة ليلة ليصلوا إلى أولى قرى أزواد المسماة أبو جبيهة وامتدت إقامتهم فيها أربع عشرة ليلة، وهو ما يرجح لدينا احتمال تنسيقهم مع ركب الحج لبلاد مالي وليس مستبعد كذلك أن تكون الدوافع تجارية، وعلى الرغم من أن البرتلي لم يخبرنا عن السبب من وراء أقامتهم في مالي لحوالي أربعة أشهر إلا إنه زودنا بتاريخ خروجهم، وذكر أنهم خرجوا من مالي في 7/ جمادى الآخرة من نفس العام، الموافق 22/ فبراير/ 1791م ، متجهين إلى توات عبر قرى المأمون التي أقاموا بها أربع عشرة ليلة، ومنها إلى قرية المبروك وبعد إقامتهم فيها لمدة خمس ليال اتجه الركب شمالاً إلى بلاد توات عبر صحراء تنزوفت في رحلة امتدت لأسبوع قطعت صحراء صعبة لا تسلكها القوافل عادة بسبب قلة المياه بها، وخشونة سطحها .

وبعد وصول الركب إلى بلاد توات قصدوا بئر إيوالان، أو والن كما سماه البرتلي، وأقاموا عنده ثلاثة أيام للاستراحة، ودخلوا توات من قرى أقبلي، وفي يوم الأثنين 5/ رجب/ 1204هـ خرجوا منها نحو فزان.

ومر الركب في طريقه إلى بلاد فزان على مدينة عين صالح، وأقاموا في ضيافة سادة البلدة أولاد سيدي بّاس، وفيها التقى البرتلي بتاجر من بلدة أوجلة الحاج محمد بن أبي بكر الأخويلدي، وأفادنا أن الأخويلدي كان مقيماً بعين صالح في انتظار عودة ابنه من مدينة تُنْبَكتُ، ولكنه بعد وصول الركب خرج صحبته بقصد الحج وهي الحجة السابعة له.( )

خرج البرتلي من عين صالح يوم الأثنين 12/ رجب/ 1204هـ، وبعد إقامتهم فيها لخمسة أيام استعدوا لعبور المفازة التي تفصل عين صالح عن بلاد فزان وبعد رحلة امتدت لأربعة أيام وصلوا إلى أولى قرى بلاد فزان (قرية أوباري)، وقد وصف البرتلي كرم وحفاوة أهلها، وتزويدهم الركب بالتمر، والقمح والشعير( )، وفي هذه الاثناء أشار البرتلي إلى خروج سادة البلدة إلى مدينة مرزق للتعزية في وفاة السلطان أحمد بن محمد بن منصور بن أحمد بن محمد ناصر (1187- 1204هـ/ 1773-1790م .( )

وبعد ذلك اتجه الركب إلى قرية جرمة أو جرم وأشار إلى الضيافة الحسنة من أهل البلاد لهم، ثم انتقل منها إلى قرية (تكركيب) وبات فيه الركب في ضيافة الأهالي، ومنها خرج الركب متجنباً المرور على القرى، ليتتبع مواضع المراعي، والكلاء لإراحة الإبل حتى وصلوا قرية تساوة، وعند وصول الركب خرج سلطانها لملاقاة الحجاج ، وقد أعجب البرتلي بالقرية، ووصف حسن وجوه سكانها، وأدبهم الجم مع الفقهاء، وحبهم للحجاج وحرصهم على طلب البركة منهم.

وفي تساوة نزل ركب البرتلي عند جامع المغاربة الأمر الذي يدل على تواصل نشاط المساجد والزوايا الدينية في خدمة الحجاج المغاربة خلال هذه الفترة وذكر البرتلي أن مشائخها سألوه مسائل فقهية، وزار بعض فقهائها وهم: الحاج صالح، ومحمد بن عبد السلام، ومحمد بن عبد الصمد، وأحمد الزيتوني والشيخ يحي ابن المرابط محمد بن المرابط يحي. وهو أحد أحفاد الشيخ يحي المشار إليه في رحلة ابن مليح، وزار قبر الحاج أحمد بن الحاج الأمين التواتي وهو أحد مشائخ ركب لولاته .

بعد الخروج من تساوة يتجه الركب إلى مرزق بعد أن يبيت ليلة في موضع يسمى زِرْكَان، ومرزق في هذه الفترة كانت حاضرة بلاد فزان ومركز حكم أسرة أولاد امحمد، ووصفت بأنها قرية عظيمة فيها جامع كبير يسمى جامع الجمعة، وذكر كاتب الرحلة تقاليد استضافة سلطان فزان للركب، والمهرجان الذي أقيم بهذه لمناسبة، ووصفه بقوله: "كانت عادته أن يلتقي الركاب، ويجلس على كرسيه وحوله أهل البلد يدورون به دوراً وراء دور على خيولهم، وعلى أرجلهم يضربون الدفوف والمزامير، والمكاحل؛ فلما انتهينا إليه صافحناه، ووقفنا جميعا أمامه وسكت عنا كل مما كان من تللك الآلات، واشتغلنا نحن بضرب دفنا والتشوق إلى نبينا كما كانت عادة الأركاب قبلنا"( ) وبعد انتهاء الاحتفال يتقدم الحجاج للسلام على السلطان، وذكر أن استضافة الحجاج المغاربة كانت تتم بمبنى جامع المغاربة الواقع داخل المدينة( ). وشاهدوا به قبر السلطان أحمد الذي توفي قبل وصولهم للبلد، وامتدت مدة إقامتهم بالمدينة تسع ليال في ضيافة السلطان وأعيان البلد ، وكانت من التقاليد أن يستضيفهم السلطان ثلاث ليال، ثم بعد ذلك يأتي دور أعيان البلد .( )

خلال هذه المدة كان ركب مرزق يتجهز للخروج صحبة ركب الحجاج المغاربة، وضم ركب ذلك العام عدداً من وجهاء البلد منهم: الحاج محمد الأخويلدي والحاج محمد بن حماد وهو من طلبة بلدة غات اللذان التقيا بالركب في بلاد توات، إضافة إلى عدد من طلبة الطوارق من(أَهَيَاوِنْ) قدموا إلى مرزق للانضمام إلى الركب، و خرجت صحبة ركب الحج قافلة من تجار مرزق متجهة إلى مصر، وبهذا التنظيم خرج الركب من عاصمة بلاد فزان بعد أن أتم تجهيزاته، وتزود بالمؤون ليواصل طريقه عبر قصور فزان نحو مصر.( )

أولى المحطات بعد مرزق قرية تراغن" وهي قرية زاوية سيدي محمد بن تامر شيخ كبير، جاءنا على فرسه يسلم علينا قبل الغروب، وضيفنا فبتنا" ( )، وهو الشيخ الذي أشار إليه ابن مليح في رحلته عند وصوله لتراغن ، وكان ابن مليح قد مدح صفاته وحفاوته في استقبال الركب، وهذه الإشارة تدل على حيوية دور الزوايا الدينية في خدمة ركاب الحج المغربي.

وكانت تراغن تمتاز بجودة تمورها خاصة الصنف المعروف عندهم ب (الآريك)؛ لأنه يصلح للدقيق حسب وصف البرتلي( )؛ ولذلك حرص الحجاج المغاربة على التزود منها بالتمور، وأثناء إقامة الركب بالقرية زار البرتلي قبر الولي الصالح سيدي محمد بن أجميل.

قضى الركب أول ليال شهر رمضان من سنة 1204هـ في جَمَّيْرٌ ، ومنها اتجه إلى زويلة التي كانت تحت أميرها الشريف هند، ووصف البرتلي قبابها، ومدافن الصحابة الفاتحين بها المقامة قرب مصلى العيدين، واستراح الركب بالمدينة ليلتين لينضم معهم حجاج البلدة منهم أحد سادات البلد ويدعى سيدي أبو الصّلاح، وهومن وجهاء البلد وذكر البرتلي أنه يملك العيون الواقعة على مشارف بلاد فزان، كان الركب قد مرّ بها، وأضاف أن مياه العيون عذبة وقد أقام عندها الركب للاستراحة وغسل الثياب استعداد لدخول بلاد فزان.

ثم خرج الركب حتى نزلوا بموضع يسمى مَرِارْ ثم آبار أم الأفاعي، ووجدها الركب سانية مدفونة فتجاوزها الركب حتى وصل إلى بلدة تمسة أقصى بلاد فزان ومنها كان الحجاج يتزودون منها بالتمور لإبلهم. و ذكر البرتلي أن بالبلدة كان الحجاج يختبرون أمر الطريق ووفرة المياه بالطرق، وبعد وصول الأخبار عن توفر مستنقعات المياه في أودية جبال الهروج سلكوا طريق الهروج إلى أوجلة. الطريق الثانية كانت تتجه يساراً عبر بلدة البُكهة، ومنها إلى زلة ولكن الطريق كانت غير أمنة ، وبسبب توفر سيول مياه الأمطار أختار الركب الطريق الأطول مع مشقة السير فيها، بيد إنها آمنة.

مر الركب في طريقه على بلدة أرْغَنَّ ومنها كانوا يأخذون حاجتهم من المياه؛ لأن المياه في المحطات التالية مالحة ويصفها البرتلي بقوله: " مع أن ماء هذه البلاد كله مالح لا يطرد شاربه عن شربه، ولا يضره ولله الحمد وأحسن ما رأيته فيها،

وشربت ماء تسمى عين الثابتْ"( )، وفي أتراغن شاهد البرتلي سانية غرست بها أشجار الفواكه كأشجار العنب واللوز والرمان، وبعد مبيتهم فيها خرجوا على طريق جبال الهروج البيض، وهي أرض صلبة خشنة ظلوا سائرين عبرها حتى وصلوا موضع يسمى الْحُكَفْ، وهذه المواضع صخرية لاوجود للعشب بها؛ ولهذا اعتمد الحجاج على ما جلبوا من تمسة من تمور لغداء الإبل .

وعند وصولهم واد لْمِلاَكْ وجدوا الأعشاب وأشجار السَّمْر، ومن هذا الوادي تبتدئ جبال الهروج السود تعبر الطريق فيها وادي الخطاب الغني بالأعشاب، و أشجار السَّمْر، ومنه إلى بركة في واد يسمى أم الْبُرْيُوفْ باتوا عندها، ثم اتجه الركب لواد أمّ أُغْرَيْسَ وعنده توجد بركة الوابر، وبات الركب عنده ليلتين لغرض الاستراحة وملئ القرب؛ لأن المياه في المحطات التالية بعيدة، ومنه سار الركب حتى نزل وادي أُشكَارْ الذي تمتد على أطرافه غابة من أشجار السَّمْر، وأنواع مختلفة من النباتات والأعشاب ومنه تزود الركب بالحشائش للإبل، ومن هنا تنتهي مرتفعات الهروج السود .

وفي المحطات التالية كان الركب يبيت في أراضي خالية على سفوح الهضاب؛ ففي المرحلة الأولى ينزل هضيب اجْعِفْرِ، وفي اليوم التالي يبيت الركب في هضيب كلب نُؤبٍ، ثم يصل في آخر اليوم التالي إلى عين زَلْطَلْ المعروفة الآن بزلطن؛ وهي من العيون المالحة، ولكن لأنه لا وجود لمورد ماء بينها وبين وجلة، اضطر الركب لسقي الإبل وملء القرب ووصف البرتلي مياهه بقوله:" ولبئس ما به من ماء كان ما أخبثه عند الشرب لا يزيل عطشا بل كل ما شربت منه تزداد عطشاً يطعن الكبد، ويسهل البطن جداً، ويصب شاربه صباً كثير بالإسهال وحتى الإبل لتصب بطونها صباً ولكننا ما وجدنا غيره ورزقنا لطف الله تعالى في شرب مائه والحمد لله الذي عافانا منه وظللنا وسلّمنا.( )"

استغرق السير عبر طريق الهروج وصولاً إلى مدينة أوجلة في رحلة البرتلي أثني عشرة يوماً، وفي الطريق إليها عبر الركب أراضي فسيحة متنوعة التضاريس وهنا روى البرتلي حادثة تهان الدليل في ثالث يوم من رحلتهم فباتوا في العراء، ونفذ ما معهم من المياه .

وفي الصباح استدل الركب عن الطريق الصحيح، و دخل أوجلة وهي قرية كبيرة كثيرة النخيل والاشجار زار البرتلي مسجدها، وعدداً من قبور الصلحاء والأولياء فيها مثل: الصحابي الفاتح عبد الله بن أبي السرح، وكان مدفوناً في جامع خاص به، ومعه عدد من الصحابة، وممن دفن بهذا الجامع كذلك سلطان فزان أحمد بن محمد الناصر وهو جد السلطان محمد بن محمد المنصور( )، وروى البرتلي أن السلطان أحمد كان قد خرج للحج وهو ضرير البصر فلما رجع من الحج رد الله عليه بصره، ثم قبضت روحه وهو عائد من الحج في أوجلة، وزار البرتلي كذلك خارج أوجلة قبر إمامها محمد بن الصالح الأوجلي، ومن المزارات التي رودت في الرحلة جامع أحمد الزروق وكانت ملحقة به خلوة كان الشيخ يعتكف بها للدراسة خلال إقامته بالبلدة.( )

وكان في انتظار الركب جماعة من أهل أوجلة للخروج صحبتهم إلى الحج على رأسهم الشيخ خالد بن المحلى، وبعد مبيت الركب بها ثلاث ليال خرج الركب قاصداً قرية جالو على بعد مسير نصف يوم تقريبا، وصفها بكثرة نخلها، وحل الركب بها يوم 27/ رمضان/ 1204هـ، وفي جالو ختم الحجاج قراءة المصحف الشريف، ثم خرج الركب من البلدة بعد أن انضم إليهم جماعة من أهل البلد قاصدين الحج، و قافلة للتجار قاصدة بلاد مصر.( )

ومنها سار الركب في أرض خلا لمرحلتين حتى وصل إلى واد معشوشب يسمى وادي قطمير، ويبدو من كلام البرتلي أنه من مواضع الأحسية، وصفه بقوله: " وصلنا واد يقال له واد قطمير قبل القائلة بكثير نزلنا، فيه النبات والماء الكثير، وماؤه نبع كل مكان منه طلبت فيه الماء تحفر حفرة لا تبلغ القامة ينبع لك الماء، ماؤه مختلف بعضه مالح، وبعضه بارد، وهو الغربي منه كل ماء كان عن مغرب يكون أطيب منه.( )"

وبعد يومين حل عيد الفطر المبارك في أرض خلاء فتوقف الركب لأداء صلاة العيد، وبعد مرحلتين تدخل الطريق في أرض صخرية شاقة، إلى منهل الطرفاوي به ثلاث عيون غير إنها مالحة، وعند وصول الركب إليها كانت اثنتين منها مطمورة بالرمل؛ فقام أفراد من الركب بإزالة التراب حتى وصلوا للماء، وأفادنا البرتلي أن عمق الماء يصل إلى قرابة القامتين، وهنا استطرد البرتلي في الحديث عن المياه ولمن تعود ملكيتها، ونقل لنا عن أهل البلد أن العيون مقسمة على الوجه التالي: العينان المعتدلتان الواقعتان يساراً خاصة للمغاربة، والعين الواقعة يمينهما لقبيلة المسماة لَمْجَاجِرِيّ من قبائل أوجلة، كما توجد عين تقع شرقي عيون المغاربة وهي على بعد مرمى حجر منهما خاصة لأهل وجلة، أو ما يعرف اليوم ب أوجلة.( )

وبعد مسير يوم في أرض صخرية خشنة ينزل الركب عند منهل الكَيَكَبْ، أو الحطية كما يسميه بعض الناس، ماؤه مالح إلا أن بعضهم يستحسنه على ماء الطرفاوي، وبعد الاستراحة يسير الركب ليوم حتى يصل إلى منهل الغزالة، وهو من المناهل العذبة" فيه ملوحة يسيرة تظهر لك أول مرة عند الشرب، ولكنه يعذب ويحلو بعد ذلك لابأس به"( ) فبات الركب عنده وجدد المياه، ثم ارتحل صباحاً إلى واحات سيوه، وهي آخر مرحلة في الصحراء الليبية.

وفي رحلة العودة يخبرنا البرتلي عن استعدادهم بكرداسة للرجوع، وبعد تجمع الركب بقوا منتظرين ركب بني غازي مدة خمسة عشر يوماً، و ذكر لنا السبب من وراء حرصهم على مرافقتهم" ونحن نحب مرافقتهم؛ لأننا قد ترافقنا معهم قبل من مصر إلى الحرمين، ثم إلى مصر راجعين منهما؛ لأنهم قوم كرام يحبوننا غاية، ولنعم الركب هم"( ). وفي اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى اتجهوا شمالاً إلى مدينة الإسكندرية؛ حيث زار البرتلي قبر دانيال والمرسى، قبر البوصيري، ثم افترق الركبان فاتجه ركب بني غازي إلى مدينة بنغازي، أما ركب البرتلي فقصد غرباً واتجه إلى بلدة أوجلة التي وصلها يوم الحادي و العشرين من جمادى الأولى وبقوا بها أياماً للاستراحة وخرجوا منها في اليوم الثاني من شهر رجب، ثم اتجهوا إلى مرزق يوم الحادي والعشرين من رجب، ثم ساروا على طريق الذهاب حتى خرجوا من بلاد فزان، ودخلوا عين صالح في التاسع والعشرين من رمضان .( )

والأمر الذي نراه من خلال الرحلتين هو تناقل قصص المعاملة الخاصة من ولاة البلد والسكان للحجاج عند وصولهم إلى أولى القرى في البلاد وحتى خروجهم منها، وفي رحلة البرتلي يسجل انطباعاته عن حفاوة أهل فزان لاستقبال الحجاج المغاربة بقوله" وما رأيت منذ خرجت من بلادي إلى الحرمين بلاداً مثل بلاد أهل فزان في الحرص على طلب البركة والدعاء والتواضع، وهضم النفس، ويحبون العلماء، ويسألونهم عن المسائل المهمات من أحكام الشرع ومن حسن أدبهم إذا مرت بهم المغاربة وكانوا يريدون الحج وفيهم رئيس يسلمون إليه الأمر ويجعلونه بيد رئيسهم ..."( ). ويروي في موضع آخر " ومن توقيرهم للحجاج خروج سلطان البلد إليهم يتلقاهم، ويفرح بهم ويضيفهم الضيافة الحسنة، وأما غير الحاج فلا يخرج إليهم أبداً ولوا جاءوا بملء الأرض ذهباً؛ فهو سلطان عادل يقيم الحدود الشرعية .( )"...

الخاتمة

وفي الخلاصة ومن خلال ما ورد نجد أن الرحلتين قد امدّتا المهتمين بدراسة تاريخ فزان بمعلومات غاية في الأهمية خاصة وإنهما قد عبرتا البلاد بلاد فزان في فترة حكم أولاد محمد الفاسي، بين القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، والقرن الثالث عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، لتعطي الدليل على حيوية، وازدهار مسارات طرق الحج المغربي عبر فزان، وتبين تأثير الاستقرار السياسي الذي عرفته البلاد على حركة التنقل، فلم نجد إشارة إلى تخوف الحجاج من قطاع الطرق فتغيير الطريق إن حدث كان بداعي اختصار الوقت أو اختيار الأسهل، أو لتوفر المياه؛ ولهذا نرى أن ركاب الحج المغربي كانت تشد السير حتى تصل إلى بلاد فزان فتنتقل بين القرى والبلدات دونما عجل، وتقضي الأيام للراحة في قصور فزان؛ ولهذا قد تطول فترة عبورهم للبلاد لما يزيد عن الشهر .

وتبرز لنا الرحلتان كذلك مدى عمق الترابط بين الحجاج وأهل فزان؛ فقد ضمت البلاد رفات سادات للركاب الحج الشنقيطي منهم الحاج أحمد الأمين التواتي، والكثير من الحجاج الذين قضوا أثناء عبورهم بلاد فزان .

الهوامش

(1) العباس بن إبراهيم بن الحسن بن محمد السملالي : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج2، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ/ 1993م، ص34.

(1) يوسف بن يحي بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي: التشوف لمعرفة رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، حققه أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م

(1) هو الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور الذهبي السعدي الحسني توفي في 14/ رمضان 1045هـ الموافق 21/ فبراير 1636م، حكم مراكش بين عامي 1040-1045هـ/ 1631- 1636م، ذكر بأنه اغتيل على يد الجنود الفرنسيين بعدما طالبوه برواتبهم ليأكلوا؛ فرد عليهم متهكما: كلوا قشر النارنج فغضبوا لذلك فتآمر أربعة منهم فقتلوه غدراً في شهر رمضان.

(1) جرت العادة على إرسال سلاطين بلاد المغرب بهدايا رفقة ركاب الحج المغربي، وفي ركب ابن مليح أرسل السلطان السعدي الوليد بن زيدان شمعدانين من مضي وزن جميعهما أربعة أرطال، وشمعدانين من الفضة الخالصة يزنان عشرة أرطال، وأرسل كذلك صندوقين من العنبر، ونقش على دائرة حسكة المضي بيتان من الشعر وهما:

متع عينيك في محاسن منظري لترى عجائب مثلها لم يعهد

قام على غصن الزبرجد جاثم ينبيك عن حب الوليد لأحمد

للمزيد انظر: عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، الطبعة الثالثة، 1427هـ/ 2006م، ص 277.

(1) محمد الأمين بن حمادي، موريتانيا خلال القرن التاسع عشر1787-1908م دراسة وتحقيق لكتاب منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور لمؤلفه أبي بكر بن أحمد المصطفى 1335هـ/ 1917م، VECMAS, ENS EDITIONS, 2011. ص 134. ((1

https://l.facebook.com/l.php?u=https%3A%2F%2Fdoi.org%2F10.1163%2F9789004448698%3Ffbclid%3DIwAR3XdQVOVmoprD_d_cuwxjjZOmwBQnIbP12SUUy7X6whYLQMKUOkKae3tKU&h=AT3v0ZkdW8xtDuQVU68YAs08jtJTYe-9df1DvTDVfWf9cEKNfofxsauuBJG3L2Pffv3LZCn3lgXgFKPUZwaEkGsZs1PJI8tn8W2p14qlmC3CNMpIhcXM_4hKaaflE4wgYT0

(1) البرتلي. محمد البشير بن أبي بكر بن أبي طالب، رحلة البرتلي، ميكروفلم رقم 1052، دار الكتب المصرية ، ص 66.

(1) مدينة ولاته: تقع في الحوض الشرقي على بعد 1300 ميل شرق العاصمة الموريتانية نواكشوط بالقرب من الحدود مع مالي. محمد بن ناصر العبودي: إطلالة على موريتانيا 1417هـ/ 1997م، ص 32.

(1) البرتلي. مخطوط رحلة البرتلي.ص 6، 13، 17.

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 122.

(1) بلاد الواحات تمتد ما بين إفريقية وبلاد مصر ولولا قلة الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من إفريقيا إلى مصر على الواحات أقرب. مجهول: الاستبصار، ص148؛ قال العمري: "وبلاد مالي وغانة يسلك إليها من غربي صعيد مصر على الواحات في بر مقفر تسكنه طوائف من العرب ثم من البربر إلى عمران يتواصل إلى غانة". مسالك الأبصار، ص 74.

(1) صورة الأرض، ص 74؛ والإدريسي يصف طريق مصر مع بلاد السودان بقوله: " كله خلاء وصحار متصلة وإن كانت المياه بها كثيرة والغدر موجودة فليس بها ساكن لأن بها رمالاً سائلة تنقلها الرياح من مكان إلى مكان وليس لأحد بها مستقر لاعتداء الرمال عليها وكثرة جري الرياح". المصدر السابق، ص 121، 122.

(1) العمري: مسالك الأبصار، ص 74؛ كما أشار ابن خلدون في أحداث حج المنسا موسى إلى مروره على مدينة غدامس، مما يدل على سلوكه طريق غدامس -بلاد الزاب – سجلماسة. العبر، ج6، ص267.

(1) الرحلة، ص 687، 693.

(1) المصدر نفسه، ص 712، 713.

(1) أنس الساري والسارب، ص 46.

(1) المصدر نفسه، ص 141-142.

(1) بلاد وادي درعة، هو إقليم يبتدئ عند الأطلس ويمتد على مسافة نحو 250 ميلا. عبر الصحراء، وهذا الإقليم ضيق جداً يقيم السكان على ضفاف النهر الذي يحمل نفس الاسم ... وعلى ضفاف النهر ينتشر عدد كبير من القصور والقرى. الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ج1، ص 205،506.

(1) من بينها: أوتبكتو، ودار الشمس ومن هذه المحطة كان يرجع المشيعين للركب إلى مراكش. ابن مليح: أنس الساري، ص 25.

(1) المصدر نفسه، ص 26.

(1) وهي موزعة كالآتي: المنكوب وهو موضع لا ماء به، ثم إلى غدير زكد، بعده مسيرة يومين لا ماء فيهما، ثم مورد الدورة ويسمى بالحمير، تنحدر إليه المياه من وادي تافيلالت، ثم مرحلة بدون ماء حتى وصلوا إلى تابليالت. المصدر نفسه، ص 24، 25.

(1) اتجه ركب ابن مليح قبل دخوله في بلاد توات إلى تابلبالت، وهي لا تقع على طريق الحج، ولكن ركب ابن مليح خرج إليها لكي يلتحق بهم أهلها ممن يريدون الحج. المصدر نفسه، ص 43؛ وهي ثلاثة قصور مأهولة بالسكان تقع على الطرق التجارية التي تصل بلاد المغرب ببلاد السودان تتوفر بها مياه العيون. الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ج1، ص129.

(1) بلاد توات تمتد حدودها من واد السمارة إلى صحراء تنزوفت. أحمد جعفري: العمارة الإسلامية في أقاليم توات، المؤتمر الدولي عن العمارة الإسلامية، جامعة الشارقة، الأمارات العربية المتحدة، أيام 8-9-10-أبريل 2008م، ص 30-35.

(1) البكري: المسالك، ج2، ص 659، 660.

(1) العبر، ج6، ص 120، 133، 206.

(1) أقام ركب ابن مليح بها انتظاراً لوصول وإلى بلاد السودان، ليخرج معهم إلى الحج. أنس الساري، ص46.

(1) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ج2، ص197.

(1) من المرجح إنها مدينة أوباري الحالية الواقعة بأقصى الجنوب الليبي على الطريق الواصلة لمدينة جرمة، وربما حرفت التسمية من قصر آبار إلى أوباري. أحمد الطاهر الزاوي: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، 1388هـ/ 1968م ص 13.

(1) رحلة ابن مليح، ص 47.

(1) من المدن الأثرية القديمة بالصحراء الليبية تقع في الجزء الجنوبي الغربي منها، تنسب إلى سكانها القدامى الجرمنت. أنظر ابن مليح: المصدر السابق، ص 32.

(1) تقع على الطريق الواصلة ما بين جرمة ومرزق، وتبعد عن مدينة جرمة بما يزيد عن أربعة كلم وتبعد عن مرزق مسافة مائة وواحد وثلاثون كلم، وهي واحة كبيرة من واحات فزان، وتنقسم إلى ثلاث أقسام: براك القصر، وبراك الزاوية، وبراك العافية، الزاوي: معجم البلدان الليبية، ص 52.

(1) رحلة ابن مليح، ص 47.

(1) المصدر، نفسه.

(1) تراغن تقع شرقي مرزق، تبعد عنها بمسافة اثنان وخمسون كلم، ووصفها ابن مليح" بأنها قصر عظيم، وخيره جسيم، وفضله عميم ". أنس الساري، ص 34؛ الزاوي: المرجع السابق، ص 63.

(1) أنس الساري والسارب، ص 34.

(1) اقامت فيها قافلة ابن مليح يوماً وذكر أن بها رجالًا صلحاء. المصدر السابق، ص 35.

(1) زويلة مدينة قديمة، تقع جنوبي شرقي طرابلس على بعد 770 كلم. الزاوي: المرجع السابق، ص177.

(1) آنس الساري والسارب، ص 35.

(1) أعلى قصور فزان وآخرها يبعد عن زويلة بمسافة 75 كلم، ووصف بأنه كثير المياه من العيون، ابن مليح: المصدر السابق، ص 35.

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(1) آنس الساري والسارب، ص 35.

(1) ناحية ذات نخيل عظيمة وغلات من التمر جسيمة، ابن حوقل: صورة الأرض، 79.

(1) آنس الساري والسارب، ص 36.

(1) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(1) آنس الساري و السارب، ص 36.

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(1) أحمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، ج1، ص 249.

(1) آبار مالحة في فلاة من الأرض. ابن مليح: أنس الساري، ص 40.

(1) بركة للمياه ومجموعة من الآبار تبعد عن نهر النيل بمسافة أربعة أيام. المصدر نفسه، ص 37.

(1) ابن مليح ، الرحلة، ص 132.

(1) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

1(1) الإدريسي، أبو علي بحيد بن الشيخ يربان القلقمي، أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق وجهودهم العلمية وقضاياهم العامة، من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر الهجري، دار النشر الدولي، الرياض 1430هـ/ 2009م، ص 185-186

(1) المختار ابن حامد ، حياة مورتيانيا حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا، تقديم وتحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم ، نشر 2011م، ص 221، 267.

(1) ابن بطوطة الرحلة ، ص658.

(1) حوادث السنين ، ص 220.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 8.

(1) رحلة البرتلي، ص 9- 10.

(1) كانت وفاته ليلة رجب من يوم الرابع بعد المائتين وألف وهوتاريخ خروج البرتلي من ولاته، رحلة البرتلي، المخطوط، ص 10 بعد وفاة السلطان أحمد تولى أخيه محمد بن محمد المنصور الذي حكم بلاد فزان بين سنتي 1204-1219هـ/ 1790-1804م وهو السلطان السادس عشر في ترتيب سلاطين أسرة أولاد محمد. حبيب وداعة الحسناوي، وثائق دولة أولاد محمد بفزان، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1994م.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 13. قارن ذلك مع ما ورد من وصف لمراسم استقبال السلطان محمد المنصور في رحلة فريرديك هورنمان الذي دخل مرزق صحبة قافلة عائدة من الحج سنة 1797م أي بعد سبع سنوات من رحلة البرتلي " ودخل التجار ينتظمون في مجموعتين، ثم دخل شيخ الحجاج تسبقه الطبول وحملة السيوف الرايات الخضراء، ويدخل الحجاج منشدين يشكرون الله على سلامتهم ويستمرون في إنشادهم حتى يأذن السلطان للشيخ بالانصراف واعداً إياه بالهدية السلطانية من اللحم والبلح لكل خيمة." فريدريك هورنمان، يوميات الرحالة فريدريك هورنمان الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام 1797م ، تعريب مصطفى محمد جودة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1968م، ص 81.

(1) أشار البرتلي إلى أن السلطان محمد الذي توفي قبل وصول ركب الحج قد دفن بجامع المغاربة. الرحلة، ص 13

(1) رحلة البرتي، المخطوط، ص 14.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 14-15.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط ، ص 16.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 15.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 17

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 20.

(1) هو السلطان أحمد بن محمد الناصر تولى الحكم بين عامي 112-1180هـ/ 1710-1766م، حبيب وداعة الحسناوي، وثائق دولة أولاد محمد بفزان، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1994م.

(1) البرتلي، الرحلة، ص 22.

(1) البرتلي، الرحلة، ص 24.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 23- 24.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 25.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 26.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 63.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 64.

(1) رحلة البرتلي، المخطوط، ص 11-12.

(1) المصدر نفسه، ص 12.

قائمة المصادروالمراجع:

أولا المصادر:

1- الإدريسي. أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي الحسني (ت 548 هـ/1153م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/ 2002م.

2- الإدريسي، أبو علي بحيد بن الشيخ يربان القلقمي، أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق وجهودهم العلمية وقضاياهم العامة، من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر الهجري، دار النشر الدولي، الرياض 1430هـ/ 2009م.

3- ابن بطوطة. أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت770هـ /1368م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، راجعه وعدّ فهراسه مصطفى القصّاص، دار إحياء العلوم، بيروت، 1407هـ/ 1987م.

4- البرتلي. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البرتلي ت(1219هـ/ 1804م): فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

5- رحلة البرتلي، ميكروفلم رقم 1052 جغرافيا. المكتبة الوطنية للمخطوطات، القاهرة.

6- البكري. أبو عبيد الله عبد العزيز بن محمد (ت 487هـ/1094م): المسالك والممالك، حققه وقدم له ادريان فان ليوفن، اندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة وللتحقيق التراث، بيت الحكمة، تونس 1992م.

7- ابن حامد. المختار : حياة موريتانيا حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا، تقديم وتحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم ، نشر 2011م.

8- ابن حمادي. محمد الأمين، موريتانيا خلال القرن التاسع عشر1787-1908م دراسة وتحقيق لكتاب منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور لمؤلفه أبي بكربن أحمد المصطفى 1335هـ/ 1917م، VECMAS, ENS EDITIONS, 2011.

9- الحموي. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م): معجم البلدان، سبعة أجزاء، تحقيق فريد عبد العزيز الجلدي، دار الكتب العلمية، بيروت 1410 هـ/1995م.

10- ابن حوقل. أبو القاسم محمد النصيبي (ت تقريبا بعد عام 379هـ/989م): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت 1992م.

11- ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/1406م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مجلد 7، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968م.

12- ابن الزيات. أبو يعقوب يوسف بن يحي بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي(ت 627هـ/ 1230م): التشوف لمعرفة رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، حققه أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م.

13- السملالي. العباس بن إبراهيم بن الحسن بن محمد(ت 1378هـ) : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج2، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ/ 1993م.

14- العمري. ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحي (ت 749هـ/1348م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس وآخرون، المجمع الثقافي، أبو ظبي1423هـ/2002م.

15- ابن غلبون. أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي (عاش في القرن 12هـ/18م): التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، نشر وتصحيح وتعليق الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349م.

16- ابن مليح. محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج: آنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس، فاس 1390هـ/1970م.

17- ابن ناصر. أبو العباس أحمد الدرعي (1129هـ/1717م): الرحلة الناصرية، حققها وقدم لها عبد الحفيظ ملوكي، دار سويدي النشر والتوزيع، أبو ظبي، 2001.

18- الوزان. الحسن بن محمد الفاسي (ت 960هـ/1552م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م.

19- الولاتي. محمد بن يحي بن محمد المختار (ت 1330هـ/1912م): الرحلة الحجازية، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1990م.

المراجع الحديثة:

1. الحسناوي.حبيب وداعة: وثائق دولة أولاد امحمد بفزان، مركز جهاد الليبين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1994م.
2. الزاوي. أحمد الطاهر: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، 1388هـ/ 1968م.
3. عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، الطبعة الثالثة، 1427هـ/ 2006م.
4. هورنمان، فريدريك: يوميات الرحالة فريدريك هورنمان الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام 1797م، تعريب محمد جودة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1968م.

الدوريات:

1- أحمد جعفري: العمارة الإسلامية في أقاليم توات، المؤتمر الدولي عن العمارة الإسلامية، جامعة الشارقة، الأمارات العربية المتحدة، أيام 8-9-10-أبريل 2008م.

2- منير. عمرو عبد العزيز، بن عثمان. عبد الرحمن بن محمد: طريق ركب الحج الشنقيطي من خلال رحلة الحاج البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد الطالب عمر البرتلي المتوفي سنة 1214هـ/1800م، مجلة مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، سنة 2016م.

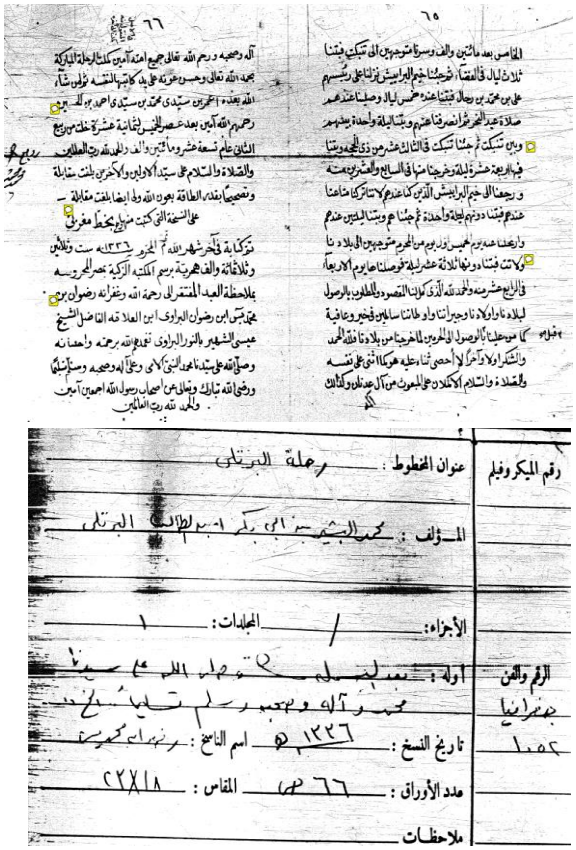

مخطوطة رحلة البرتلي